

هذا جناه أبى على

إلى أن وجه (المعلم) — سامحه الله وأكرم مثواه — تعلوه سحابة من الغضب والتجهم جعلتني أرعد خوفا بالرغم من استمرارى فى قراءة القرآن وتعمدى رفع صوتى فى ترتيل آياته . وقبل انصرافنا من الكتاب بزمن قصير حضر ابراهيم وهو يتبه بتلك الملابس الجديدة التى كان يرتديها وتعلو وجهه ابتسامة مشرقه لم تعود رؤيتها على وجوه المتأخرين عن الحضور إلى الكتاب ، وأخذ صاحبنا طريقه إلى منصة (المعلم) غير آبه بتلك النظرات القاسية التى سلطها عليه ، وغير مبال بتلك العصي الغليظة التى أخذ يهزها فى وجهه هزا . وساد حلقة الدرس هدوء كالذى يسبق العاصفة العاصفة التى كنا ننتظر أن يثيرها أستاذنا الفاضل ذو الحول والطول على هذا التلميذ للهمل ، وحبسنا أنفاسنا حين تكلم (المعلم) بصوته الجهورى متسائلا عن سبب التأخير ، ورد عليه صاحبنا فى غير مبالاة أو تسرع بأن أباه قد قرر إخراجه من الكتاب ليسافر معه إلى (الغوص) ثم ألقى إليه ببعض درهماً وانصرف . ! !

وكانت المفاجأة شديدة الوقع على فقدته سرتنى وأحزنتنى سرتنى حين تبين لى أن صاحبي قد شب عن الطوق وذهب مذهب الرجال ، وأحزنتنى حين فكرت فى الفراغ الكبير الذى ستركه خروج ابراهيم زميلي وصديقي ، ولا أكذبك القول أيها القارئ العزيز أننى فى ذلك الوقت تمنيت لو استطعت أن أقنع أبى ليحذوا حذو أبيه وفعل ما أن انصرفنا من الكتاب حتى ذهبت أبحت عن الشيخ الوقور الذى ما إن أفضيت له ما بنفسى حتى قال — ولا تزال كلماته ترن فى أذنى — يا بنى لكل زمان دولة ورجال ، ونحن لا نعلم ما يجتبه لنا القدر فإن كان (الغوص) أو (السفر) الآن فى ازدهار فقد يقلب الدهر ظهر المجن وتنعكس الآية .

ثم ربت على كتفى وقال (لقد قررت إلحاقك بمدارس المعارف فما رأيك فى ترك الكتاب ؟ والحق أن فكرة ترك الكتاب هذه جعلتني أنسى ما جئت لأجله ، فانصرفت مغتبطا .
(البقية على صفحة ١١)

تقابلت معه فى الصيف الماضى حين كنت أفضى العظلة الصيفية فى الكويت ، ولم أصدق نفسى أول الأمر أننى أمام صديقي « ابراهيم » رفيق الطفولة السعيدة ، لو لم يبادرنى بقوله « أنسيت صديقك ؟ » ، قلت الحق أننى ما كنت أتصور أن . . . قال . . . مرة لا تخلو من سخرية ، أن أصبح على هذه الحالة السيئة اليس كذلك ؟ قلت — وأنا فى أشد حالات الاحراج — الحق أننى أتخلى بذاكرة لا بأس بها فى عالم النسيان ثم شددت على يديه مودعا لأخلص من هذا الموقف المؤلم .

هذا أيها القارئ العزيز ضحية من ضحايا مجتمعنا الجاهل ضحية أب تمسك بثوب التقاليد الرجعية فأحرق شمعة كانت ستضيء نورا لهذا البلد البائس لولم توجه توجيهها شيئا .
والآن عدمى أيها القارئ العزيز إلى الوراء خمسة عشر عاما لأقص عليك قصة صديقي هذا . كان ذلك فى سنة ١٩٣٥ وكنت وصديقي « ابراهيم بطل هذه المأساة تنالى الكتابة وقراءة القرآن فى إحدى الكتاتيب المنتشرة هنا وهناك فى حينئذ الواسع ، وكنت وصاحبي نجلس متجاورين حين نقبل إلى الكتاب صباحا فتبادل الحلوى والملبس الذى نجلبه معنا كل صباح لنقطع به ذلك الوقت الطويل الذى نقضيه فى الكتاب والذى قل أن يتخلله راحة أو فسحة .

ومضت بنا الحياة على هذا النوال سهلة هينة ، قبل إلى الكتاب إذا أقبل الصباح ورجع منه إلى البيت قبل غروب الشمس بسويغات قليلة ، ولم يكن يكدر صفونا إلا تلك الحملات التأديبية المفاجئة التى يشنها علينا (المعلم) مستعملا عصاه الطويلة الثقيلة حين يلحظ علينا تكاسلا فى حفظ الدرس أو تهاونا فى دفع (الحمسية) أو (النافلة) .

وفى صباح أحد الأيام حضرت إلى الكتاب فلم أجد صاحبي ابراهيم ، فأدهشنى ذلك لما تعودت فى صديقي من حرص على التبكير فى الحضور وإعراض عن التأخير ، ومضت ساعات كنت خلالها أفكر فيما قد يصيب صاحبي من عقاب على هذا التأخير خصوصا وقد لاحظت أو خيل